هوغو ستنس

(٢)

نشرنا في مقتطف يناير خلاصة الحديث الذي دار بين الكاتب الاميركي اسحق مركوسن وبين هوغو ستنس المثري الالماني المشهور. وقد رأينا ان نلخص ما ذكرهُ هذا الكاتب من سيرة ستنس وكيف ارتقى من تاجر فحم عامل الذكر الى ان صارت لهُ السيطرة الكبرى على معامل الالمان

لم ينشأ ستنس كاتباً بسيطاً في بيت تجاري ولا عاملاً صغيراً كما نشأ كثيرون من اصحاب الملايين في اميركا بل ورث من ابيهِ وجدهِ ماكان يعدُّ في عصرهما ثروةً ولو لم يُحسَب شيئاً الآن. فان جدهُ متياس ستنس توفي سنة ١٨٥٥ وكان من كبار رجال الاعمال في عصرهِ كان يملك مناجم فحم في وادي الرور (Ruhr) وهو اول من اجرى السفن البخارية في نهر الرين لنقل الفحم من مناجمهِ. وفي تلك الرقعة نشأ كل رؤساء الاعمال من الالمان وكان متياس ستنس واحداً منهم وكلهم اهل جد ونشاط لانهم لم يغرهم السعي والكدح بعيدين عن رفاهة العيش ومنهم اغسطس تِسن (Thyssen) وهو الآن في الثمانين من عمرهِ ولا يزال دائباً على العمل ورئيساً لاعظم المعامل في المانيا بعد معامل ستنس تراهُ يسير اليها كل يوم الساعة الثامنة صباحاً بسيارة من سيارات الشوارع مع اصغر العمال كتفاً لكتف

ومن الغريب في امر هؤلاء الرؤساء ان اولادهم واولاد اولادهم حذوا حذوهم كما يظهر من امر هوغو ستنس فان جدهُ كان يعدُّ جباراً في عصرهِ لانهُ بنى اكثر سفن النقل في نهر الرين. وكان لهُ ثلاثة اولاد وكلهم ساروا في خطتهِ وزادوا في ثروتهِ. وهوغو ابن الولد الثالث وقد زاد ثروة العائلة فوق كل ماكان يحلم بهِ جدهُ

ولد هوغو هذا سنة ١٨٧٠ فلا يزال كهلاً ودرس في مدرسة عالية وكان غرض ابيهِ ان يبقى مواظباً على العمل الذي انشأهُ جدهُ اي استخراج الفحم الحجري ونقلهِ فتعلم ودخل المناجم عاملاً بسيطاً واقتلع الفحم بالمعول ثم دخل مدرسة المناجم في برلين سنة ١٨٨٦ واقام فيها سنة وعاد الى الشركة التي

انشأها جدهُ وكان لامهِ ربعها وهي فرنسوية الاصل من الهغنوط البروتستانت الذين هاجروا من فرنسا . ولما صار لهُ من العمر ٢٣ سنة انفصل عن الشركة واشتغل وحدهُ وراس مالهِ ثلاثة آلاف جنيه لا غير. ومن ثم سار في عملهِ بخطى الجبابرة فبلغ برأس مالهِ الخاص قبل الحرب مليوناً وربع مليون من الجنيهات اما في زمن الحرب فاتسع نطاق اعمالهِ اتساعاً يفوق الوصف وتضاعفت ثروتهُ اكثر من اربعة اضعاف وبعد امضاء الهدنة صار الرئيس المطلق لادارة الشركات الصناعية

ولم يبلغ ما بلغهُ الاَّ لانهُ جرى على خطة معينة اختطها لنفسهِ ولو خالف بها كبار الاغنياء . فان خطة كارنجي كانت اختيار الرجال الاكفاء والاعتماد عليهم اما ستنس فلا يعتمد على احد في ادارة اعمالهِ بل يديرها بنفسهِ ويحسب ان هذه الخطة يجب ان يسير فيها ابنهُ البكر بعدهُ ولذلك يدعوهُ ليحضر كل المذاكرات المهمة التي تستدعيها اشغالهُ. واذا تعذر عليهِ حضورها حضرها اخوهُ التالي مع انهُ لا يزال في المدرسة الكلية حتى اذا مات ستنس فجأةً تولى اولادهُ اعمالهُ بعدهُ

وخطتهُ في ادارة الاعمال الصناعية الواسعة انهُ يقدّم الاموال اللازمة لانشاء العمل ويتولى ادارتهُ الى ان تروج اسهمهُ فيسحب قسمة اعشار المال الذي دفعهُ ويرسل بهِ عملاً آخر وهلم جرًّا. وعلى هذه الصورة انشأ سلسلة كبيرة من الاعمال ولم يزل يديرها بنفسهِ. وهو يحسب ان ادارة العمل وانحصارها في شخص واحد من اول شروط النجاح فيهِ. ولما عرضت في مجلس النواب الالماني مسألة تولي الحكومة للاعمال الصناعية قال معترضاً على ذلك « انني حينما اريد الشروع في عمل اسأل هذين السؤالين الاول من ينتدبهُ لي هذا العمل والثاني من هم العمّال الاكفاء للسير فيهِ. فاذا لم اجد الرجل الذي يستطيع انشاءهُ ولا العمال الذين يستطيعون الجري فيهِ تركتهُ. فيجب ان تتركوا لمديري الاعمال ما انشأوهُ وما هو خاص بهم »

كان الفحم الحجري الاساس الذي بنى عليهِ ابوهُ وجدهُ ثروتهما فلما صار عمرهُ ٢٣ سنة رأى انهما يكتفيان ببيع الفحم لسابكي الحديد فيكون ربحهما منهُ قليلاً وربح السابكين كثيراً فلم يكتفِ بما اكتفيا بهِ بل ابتاع كثيراً من مناجم الفحم وصبر حتى كثر ربحهُ من استخراجهِ وبيعهِ ثم ابتاع اثني عشر منجماً من مناجم الحديد فملك ناصيتي الفحم والحديد الذي يسبك بهِ. ولم تمضِ عليهِ سنوات كثيرة حتى قبض على زمام هذين المعدنين في وادي الرور فانهُ صار يدير ستين

منجماً من مناجم الفحم يستخرج منها عشر ما يستخرج من مناجم المانيا كلها . ولعلهُ الرجل الوحيد الذي استطاع ان يصدر الفحم الى الكلترا. وزد على ذلك انهُ ابتاع كل سفن عائلة ستنس التي تمخر نهر الرين واستقلَّ بها فصار النقل في انهر الرين والالب والاودر في يده وامتدت سفنهُ الى البحر الشمالي والبحر البلطيك والبحر الاسود وبحر الروم والاوقيانوس الاتلنتيكي

ونشبت الحرب العظمى وستنس يملك الفحم والحديد والفولاذ (الصلب) وهي عماد الحروب . وكانت المانيا تحسب النصر حليفاً لها ولم يخامرها ريب في ذلك فاتفقت بكرم حاتمي على المواد اللازمة لها واخصها الفولاذ فارتفع ثمنهُ ضعفي اضعاف . وقلَّ الفحم عند الحلفاء وكان كثيراً عند الالمان فحسبوا انهُ سيكون الواسطة الكبرى لقهر خصومهم وباعوا منهُ لهولندا وسويسرا واسوج والدنمارك بأثمان فاحشة . وكان لستنس نصيب وافر من الربح من بيع ما عندهُ منهُ ومن نقل ما عند غيره . ورأى فيهِ الجنرال لودندرف رجلاً عائلهُ هو في ادارة الحرب وستنس في ادارة الصناعة فصار لهُ المقام الاول في ديوان المواد الاولية ببرلين واليد الطولى في دفع الناس الى الخدمة العسكرية وفي وضع صناعات البلاد لخدمة رجال الحرب . وادار مناجم فرنسا وبلجكا التي استولى عليها الجيش الالماني واخذ العمال من معامل بلجكا وفرنسا الى معامل المانيا لما اقتضت الحرب تجنيد عمالها

ولم يخفَ ما كان يرمي اليهِ استيلاء المانيا على مناجم الفحم البلجيكية ومناجم الحديد الفرنسوية . وتظهر ثقتهُ بأن الفوز يكون للالمانيا من اهتمامهِ بانشاء ثلاث شركات كبيرة وهي الشركة الصناعية والشركة التجارية والشركة المعدنية والغرض من هذه الشركات الاستيلاء على كل صناعات البلجيك وقد انشئت سنة ١٩١٦ حينما كانت الدلائل كلها تدلُّ على ان الفوز سيكون للالمان لكن هذه الشركات بقيت حبراً على ورق فلم يتم امرها بل زالت كما زالت سائر امالي الالمان وبددتها نيران نوفمبر سنة ١٩١٩ . أما اعمالهُ الخصوصية فلم يعترها الفشل بل قويت واتسع نطاقها اي اتساع . وكان الامبراطور قد قال ان مستقبل المانيا على الماء فبادر ستنس الى تحقيق ذلك فابتاع بواخر شركة شرق افريقية الالمانية سنة ١٩١٦ ثم ابتاع جانباً كبيراً من شركة همبرج اميركا وشركة نورث جرمان

لويد . وسنة ١٩١٧ اشترى محل هدمن الذي كان مالكاً ناصية الملاحة في همبرج منذ سنة ١٨٤٨ وابتاع معهُ سفناً وارصفة ومخازن كثيرة

وسنة ١٩١٧ انشأ شركة الملاحة والتجارة الاوقيانوسية المسماة باسمهِ وجاء في رخصتها (بزاءتها) انها تستطيع ان تبني السفن وتستعملها وتصنع المركبات وتنشىء المعامل وتشتغل بكل عمل صناعي او تجاري. فلا حد للاعمال التي يحق لها ان تتعاطاها. ويدير هذه الشركة الآن ابنهُ الاكبر ومقرهُ في همبرج

وفي اوائل سنة ١٩١٨ اشترك في شركة البترول الالمانية الاميركية وابتاع بعض فنادق همبرج وبيوتاً تجارية في كوتنبرج وبرمن ثم ابتاع شركة الملاحة في البلطيك وشرع في بناء اثنتي عشرة باخرة كبيرة من البواخر التي تسافر في الاوقيانوس حتى اذا وضعت الحرب اوزارها يستطيع ان ينقل بضائع معاملهِ في سفنهِ غير حاسب حساب الانكسار . ولهذه الغاية اشترى حراجاً فسيحة في المانيا لكي يأخذ الخشب منها لبناء سفنهِ ومعاملهِ فاخطأ في حسابهِ على غير عادتهِ

لكن فشل المانيا في الحرب لم يفتّ في عضدهِ ولا اضعف عزيمتهُ بل زادهُ قد جنى الفوز من الفشل فصار صديقاً للجمهورية كما كان صديقاً للامبراطورية وشارك العمال في كسبهِ من كل اعمالهِ كاحد زعماء الديموقراطية

وابتاع الجريدة التي تعدّ نصف رسمية (دتش الجن زيتونج) ثم ابتاع جرائد اخرى ولما رأى ان ربحها قليل او ان لا ربح منها بحث عن السبب فوجدهُ غلاء الورق فابتاع بعض معامل الورق ومعامل الرُّب الذي يصنع الورق منهُ والحراج التي يستخرج الرب من خشبها . ثم ابتاع شركة التلغراف التي تجلب الاخبار التلغرافية واعظم بيوت طبع الكتب ونشرها . فاستولى على كل وسائل النشر من الحراج التي يصنع الورق من خشبها الى مطابع طبع الكتب والجرائد . وجرى في ادارة الكتب والجرائد كما جرى في ادارة مناجم الفحم والمعادن . ولو اردنا ذكر كل معاملهِ والاعمال التي في ادارتهِ لملأ ذلك صفحات كثيرة فان منها مركبات الشوارع ومعامل الاتوموبيل ودور صنعة السفن ومعامل الاصباغ والغاز والمواد الكيماوية وآبار البترول ومصايد الاسماك وسكن النفس وغير ذلك مما يطول شرحهُ . ولهُ مصالح كبيرة جدًّا في النمسا واسوج والدنمارك وايطاليا واسبانيا وبرازيل وفرنسا وانكلترا والولايات المتحدة

ولما حضر مؤتمر سبا مع الوفد الالماني كخبير في مسألة الفحم الحجري عرفهُ الناس كما هو فانهُ لما قرأ تقريرهُ عن الفحم وصف دول الحلفاء ولاسيما فرنسا بانها مصابة بداء التفتح فانهرهُ رئيس المؤتمر اما هو فنظر اليهِ وقال « انني لم اتِ الى هنا لاجل المجاملة »

ورب قائل يقول كيف يدير انسان واحد هذه الاعمال كلها . والجواب انهُ لو كان رجلاً عادياً لاستحال عليهِ ان يديرها اما وهو رجل غير عادي فقد تمكن من ادارتها بتقسيم هذه الادارة الى فروع مثل دواوين الحكومة . فعندهُ فرع للامور المالية مختص باستعمال المال والقروض والرهون . ودفاتر هذا الفرع محفوظة بالدقة التامة فيستطيع ان يقف على رصيد امواله في كل يوم . وعندهُ فرع لشحن وفرع للفحم وفرع للعمال وفرع للجرائد وفرع للتجارة الخ. ولكل فرع رئيس مسؤول عنهُ لديهِ. ويوم يجيء برلين يجتمع بؤلاء الرؤساء ويقف منهم على احوال اعمالهِ كلها . ومركز ادارتهِ الاكبر في ملهيم Mulheim مقر عائلتهِ الاول ولهُ ادارات واسعة في برلين وهمبرج. ومركز الادارة الكبرى في دماغهِ

ومن المحتمل انهُ لا يزال ملكياً لان حب السلطة مغروس في فطرتهِ ولذلك سمى ثلاثاً من البواخر التي بناها لتسخر في الاوقيانوس باسم ثلاثة من اركان الامبراطورية وهم هندنبرج وتربتز ولودندرف وكل واحد من هؤلاء انزل الباخرة المسماة باسمهِ وقت انزالها الى البحر. ولكن لا يستنتج من ذلك انهُ من القائلين بارجاع الامبراطور السابق واولادهِ لانهُ احكم من ان ينصر بيتاً قضي عليهِ

وخلاصة المقال انهُ رجل عملي من اهل العمل لا من اهل النظر . لما ابتاع قصر ويلكم قال الذين يجهلونهُ انهُ سيترك العمل وينقطع الى الراحة ويجعل قصرهُ مباءة للاصدقاء والعظماء ثم ظهر انهُ ابتاع ذلك القصر لان في الاراضي التابعة لهُ مناجم غنية

ولا يُعلَم الآن كم ثروتهُ ولكن الاجماع على انهُ اغنى رجل في المانيا . وقد سئل مرةً لماذا تتعب بعد ان صار لك هذا المقدار من الملايين : فقال « انني اتعب لاولادي » . هذه النعرة للاولاد من الغرائز الراسخة في البشر وفي كل الاحياء